المحاضرة الرابعة: الأغراض الشعرية المستحدثة في العصر العباسي وآراء النقاد فيها

المطلب الأول: المستجد والمستحدث من الأغراض الشعرية

رأينا في موضوعات الشعر القديمة تجددا واسعا في معانيها, فقد أخذت تعرض بصورة أدق وأعمق, وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة, ولم يكتفِ الشعراء بتوسيع دائرة الموضوعات القديمة بل استوحوا موضوعات جديدة استجابة لعوامل التطور التي غيرت صورة المجتمع في تلك الفترة , ومن هذه الموضوعات :

1- شعر الصداقة:

اهتم الشعراء في القرن الثاني اهتماما ملحوظا بالشعر الذي يتحدث عن الصداقة باعتبارها صورة من صور العلاقات الإنسانية النبيلة , وأفاضوا في الحديث عن الصداقة الحقيقية القائمة على الإخلاص , والصداقة الزائفة التي تنطلق من مصلحة مادية ولا تلبث أن تنكشف الأقنعة، كما حرصوا على التحذير من صديق السوء أو الصداقة الزائفة ، كقول حماد عجرد :

كم من أخ لك لست تنكره *** مادمت من دنياك في يسر

متصنع لك في مودته *** يلقاك بالترحيب والبشر

يطري الوفاء وذا الوفاء ويد ***بحي الغدر مجتهدا وذا الغدر

فغذا عدا-و الدهر ذو غير ***دهر عليك عدا مع الدهر

فارفض بإجمال مودة من ***يقلى المقلَّ ويعشق المثرى

وعليك من حالاه واحدة ***في العسر إما كنت و اليسرِ

لا تخلطنَّهمُ بغيرهمِ *** من يخلط العقيان بالصفر

إن حماد عجرد يحذر من الصديق الزائف الذي يتصنع في مودته ويدور مع النعماء حيث تدور ،ولا يصاحب إلا لمصلحة أو حاجة فهو يعشق صاحب المال و الجاه والسلطة ويكره المقل أو الفقير ،فالمعيار عنده هو المصلحة المادية لا غير ،و على المرء أن ينتبه لهذا النوع من البشر أن يحذر الاغترار بصنيعهم ،و ألا يخلطهم بالأوفياء ،ففرق كبير بين الذهب والنحاس .

كما حذرنا أبو العتاهية من الصديق الأحمق الذي يؤذي صاحبه بحمقه ويتمادى ولا يأبه بنصح أو العتاب و يقول:

احذر الأحمق أن تصحبه *** إنما الأحمق كالثوب الخلق

كلما رقعته من جانب *** زعزعته الريح يوما فانخرق

أو كصدع في الزجاج – فاحش*** هل يرى صدع زجاج يلتصق ؟

فإذا عاتبته كي يرعوى ***زاد شرا وتمادى في الحمق([1])

[1] فوزي عيسى وفوزي أمين ،الأدب العباسي ،د ط ،دار المعرفة العلمية الجامعية 2003، ص220.

و ينطلق بشار في مفهومه للصداقة من نظرة واقعية ،فهو يدعو إلى أن يأخذ المرء صديقه على علاته وألا يعاتبه في كل صغيرة وكبيرة ،فقد ينصرف عنه الأصدقاء كلما أسرف في عتابهم على المرء أن يدرك أن الصديق إنسان يصيب أو يخطئ ،يقول :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ***صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدا أوصل أخاك فإنه *** مفارق ذنبٍ مرة و مجانبـهْ

إن الإكثار من شعر الصداقة يعكس مظهرا من التغير الاجتماعي في القرن الثاني هجري ، فقد ذابت العصبيات القبلية وانفتح المجتمع العربي على أجناس مختلفة من فرس وروم وهنود وغيرهم وكانت الدعوة للصداقة تعبيرا عن الرغبة في تجاوز الخلافات العصبية والمذهبية ،ولا تنسى كذلك الدور الثقافي الذي أداه ابن المقفع في هذا الجانب: فقد نقل عن الفارسية كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير و كلاهما يحتفي بالصداقة ويعلى من قيمتها ويحض عليها، و قد عقدت صداقات كثيرة بين طوائف الشعراء مثل عصبة المجان ، ولم تمض العلاقات على وتيرة واحدة ،وقد عبر الشعر عن الصداقة في جوانبها المختلفة سلبا وإيجابا.

2- الشعر التعليمي:

وهو فن شعري جديد استحدثه الشعراء في القرن الثاني هجري استجابة لازدهار الحركة العلمية وتطور الحياة العقلية ورقيها، فنظم بعض الشعراء شعرا يهدف إلى تسهيل حفظ العلوم المختلفة لأن الإيقاع الشعري يسعف في الحفظ , وكما يقول الجاحظ: "فإن حفظ الشعر أهون على النفس , وإذا حفظ كان أعلق وأثبت , وكان شاهدا , وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلا".

وقد نظم الشعراء شعرا تعليميا في مختلف العلوم كالفقه والنحو والتاريخ والسير والعلوم الطبيعية, ويعد أبان بن عبد الحميد اللاحقي رائد هذا الفن الشعري الجديد , فقد ضرب فيه بسهم وافر ونظم في العلوم مختلفة "فهو إلى جانب نظمه في الفرائض قد نظم قصائد أخرى تعليمية في تاريخ الفرس , منها ما هو في سيرة أرد شير . ومنها ما هو في سيرة أنوشروان , كما نظم قصائد في العقائد الفارسية والهندية ".

و لأبان قصيدة تعليمية في مبدأ الخلق ضمنها شيئا من المنطق. ومن آيات براعته في هذا الفن أنه نظم كتاب كليلة ودمنة بما يتضمنه من قصص على ألسنة الحيوان في أربعة عشر ألف بيت . و قد استهل أبان هذه المنظومة بقوله معرفا الكتاب :

هذا كتاب أدب ومحنه *** وهو الذي يدعي كليلة ودمنة

فيـــه دلالات وفيــه رشد ***وهو كتـــاب وضعته الهند

فوصفــوا آداب كـل عالـم ***حكايـة عـن ألسـن البهائم

فالحكماء يعرفونه فضله *** و السخفاء يشتهون هزله

وهو على ذاك يسير الحفظ *** لذ على اللسان عند اللفظ

كما يحفى أبان باستخلاص العبرة المستهدفة من الحكاية ،كقوله في حكاية الأسد والثور :

و إن من كان دنئ النفس ***يرضـــى من الأرفع بـالأخس

كمثل الكلب الشقي البائس *** يفرح بالعظم العتيق اليابس

وقد تنوعت ضروب الشعر التعليمي التي طرقها ابان بن عبد الحميد ،فقد نظم الأحكام المتعلقة بالصوم والزكاة ،فقال عن الصوم :

هذا كتاب الصوم وهو جامـع ***لكـــل مـا قامـت بـــه الشرائـــع

مِـن ذلـك المنـزل فـي القـران *** فضلا على من كـان ذا بيـان

وقد كتب الشعراء العلماء في الشعر التعليمي عن وصف الحيوان وطبائعه، ومنهم هارون الأزد ،و الجاحظ الذي قال في صفات الفيل أشعار كثير . ولم يقتصر الشعر التعليمي على التعريف بالعلوم المختلفة بل تعدى ذلك فطمح على هدف الأهمية وهو النصح والإرشاد والوعظ والتهذيب ،و يمثل أبو العتاهية هذا الضرب فنقف على هذا الخطاب الوعظي فيقول :

مـا انتفـع المـرء بمثـل عقلـه *** وخير ذخر المـرء حسـن فعله

أن الشباب و الفـــراغ والجـدة *** مفسـدة للمـــرء أي مفيـدة

إصحب ذوى الفضل و أهل الدين ***فالمرء منسوب إلى القرين

إيـاك والغيبـــة والنميمـــة *** فإنهـــا منزلـــة ذميمـــة

و يمكن أن نعد من الشعر التعليمي ما نظمه الشعراء في التعريف بالمذاهب المختلفة ، و لعل اهم الشعراء المذهبين الذين اهتموا بهذه الناحية التعليمية في شعرهم السيد الحميري – فهو- كما يقول ابن المعتز : "لم يترك لعلى بن أبي طالب فضيلة إلا نقلها إلى الشعر ".

3- شعر التصوف :

إذا كان الزهد ردة فعل انعكاسية لحياة الترف والمجون التي سادت العصر العباسي الأول ، فإن بذوره أورثت ظلالها في هذا العصر نظر لطغيان الخلفاء ،و الأمراء والقادة والطبقات العليا من الشعب ، و تفاخرهم بنعيم الدنيا الزائل حتى أنفقوا الملايين على القصور ،وضياعهم وجواريهم وشاع الفساد حتى أضحى غير مستنكر حتى في قصور الخلفاء ،فنهض بعض علماء الأمة ،يذكرون الناس بالجنة ونعيمها وثواب التائبين العابدين ،ومنهم إبراهيم بن إسحاق الحركي وكان من كبار المحدثين ،كان عاكف النفس ،زاهدا في مباذل الدنيا ،حتى أنه رد عطية الخليفة المعتصم ، فأرسل رسوله ثانية بالأموال ،و قال له :يسألك الخليفة ،أن تفرقها في جيرانك ،فقال له :عافاك الله ،هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه ،فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين ،إن تركتنا أقمنا وإلا تحولنا عن جوارك.

وظهرت نزعة التصوف منذ أواخر القرن الثاني الهجري ، عند إبراهيم بن الأدهم ،وشقيق البلخي ومعروف الكرخي .

وقد اختلف العلماء في مصادر الصوفية ،فالبعض يعزوها إلى اللباس الصوفي الخشن الذي اختارته الصوفية ، والبعض من الصفاء ،نسبة إلى أهل الصفة الذين انقطعوا للعبادة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن أعلم التصوف في هذا العصر ،الحارث بن أسد المحاسبي (ت234هـ)، وذو النون المصري (ت245هـ)وهو أول من نشر الصوفية في أرض النيل ، وكان السري السقطي ت(251هـ) شيخ متصوف بغداد وإمامهم ،ومن جميل شعره في التصوف .

إذا ما شكوت الحب قالت كذبتني *** فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا *** و تذهل حتى لا تجيب المناديا

ويحاول متصوفة أواخر القرن الثالث الهجري صياغة أفكارهم و معتقداتهم شعرا فيه عاطفة وشوق وتضرع ،ومنهم سمنون أبو الحسين الخواص (ت303هـ)ودلف بن جحدر الشبلى (ت334هـ) ، ومن جميل ما قاله في التصوف:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبري ***دمعان في الأجفان يزدحمان

ما أنصفتني الحادثات رميننـي *** بمودعين وليس لـي قلبـان

ودخل يوما على شيخه الجنيد وأنشد :

عودوني الوصال والوصال عذب ***ورموني بالصد والصد صعب

زعموا حين أزمعـوا أن ذنبـي ***فرط حبي لهم ،وما ذاك ذنب

لا وحق الخضـوع عنـد التلقي *** مـا جـزا من يُحب إلا يُحـبُّ

فأجابه الجنيد :

و تمنيـــت أن أرا *** ك فلمَّـــا رأيتكا

غلبت دهشة السرو***ر فلـم أملـكِ البكـا

و كان يردد دائما :

صح عند الناس أني عاشق ***غير أن لم يعلموا عشقي لمن

4- الشعر الفلسفي :

يعتبر أبو العلاء المعري شاعر فلسفة الحياة , وهو أول شاعر ينظم ديوانا كاملا في الفلسفة يدعى " اللزوميات " وفيه ملخص للمذاهب الفكرية السائدة في عصره، واهمها نظرته ورؤيته في الموت والحياة الفناء، فيقول :

صاحِ هذي قبورنا تدل علينا فأين القبور من عهدِ عادِ

خفف الوطء ما اظن اديم الارض إلا من هذه الأجسادِ

رُبّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ

5- الشعر الشعبي:

إن التطور الحقيقي الذي طرأ على الشعر في العصر العباسي هو ظهور اتجاه قوى يعبر عن طبقات المجتمع الكادحة ويجسد همومها وآلامها دون تزويق أو رياء , وبذلك تحرر الشعر من الطابع الرسمي الذي لازمه طويلا , فلم يعد قاصرا على ما ينشد في قصور الخلفاء أو بين العلماء واقترب من هموم الناس واستجاب لحاجاتهم العاطفية والاجتماعية , وكان طبيعيا أن يسلك الشعر هذه الدروب بعد التطور الاجتماعي الهائل الذي طرأ على المجتمع العباسي، فلم يمثل مجتمع النخبة أو الطبقة الواحدة بل أصبح يستوعب طبقات اجتماعية مختلفة الأجناس والطبائع كالمولدين والموالى والزنج وغيرهم , وقد عبر الشعراء المنتمون لهذه الطبقات البائسة عن همومهم ومآسيهم في غير تحرج , فكانت أصواتهم وهم يشكلون الفقر أشبه بصرخات قوية تدين المجتمع وتكشف عن الخلل الكامن فيه , فثمة طبقة قليلة تستمتع بملذات الحياة وتسرف في معيشتها غاية الإسراف في مقابل الطبقة الكادحة التي تمثل الأغلبية وهي تعاني شظف وقسوة الفاقة , وليس أدل على هذا الطابع الشعبي الذي بلغة الشعر من ظهور مقطوعات شعرية يستخدمها الشاعر الفقير في سؤال الناس واستجدائهم , ومن ذلك قول أبى فرعون الساسي(من الرجز):

يا إخوتي يا معشر الموالى * أنا ابنكم وأنتم أخوالـي**

هذا زبيلي وجرابـي خـال * والمال عال والدقيق غال**

وقد مللنا كثرة العيال

المطلب الثاني: آراء النقاد في التجديد

انقسم نقاد الأدب وعلماؤه طبقات:

1- الطبقة الاولى: طائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ,وتزري بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة.

ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالعربية , كان يقيم الموازنة على أساس عصورهم لا على أساس شعرهم حتى قال "لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحد " وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبق إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم .

ومنهم أيضا ابن الأعرابي وكان يزري بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء فكان يقول في شعر أبي تمام "إن كان هذا شعر فكلام العرب باطل " وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعرا له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابا شديدا وكتبه فلما علم أنه لأبي نواس أنكره.

2- الطائفة الثانية: وهم النقاد الذين حكَّموا الذوق الأدبي وحده في الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهليا كان أو إسلاميا أو محدثا كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق , ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب وفضل لامية مروان على لامية الأعشى.

3- الطائفة الثالثة: حكَّمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في نقد الشعر ومناهجه ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية.

وفي الأخير فإن التجديد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر في الوجداني منه , وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر رقة العبارة والتفنن في المعاني , والتوفر على البديع اللفظي , وقد يضاف إليها التوسع في المصطلحات اللفظية.